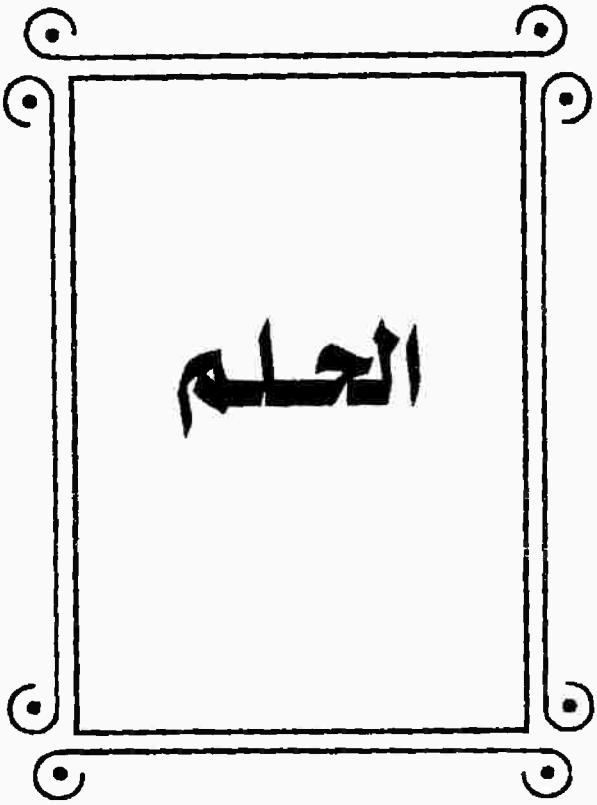
الحلم

اشتهر معاوية بعد الدهاء بالحلم، وأجمع مؤرخوه من مادحيه على وصفه بهاتين الصفتين. وقد أفرد ابن أبى الدنيا وأبو بكر بن عاصم تصنيفًا فى حلمه، وقالل قبيصة ابن جابر: "صحبت معاوية فما رأيت رجلا أثقل حلمًا ولا أبطأ جهلا ولا أبعد أناة منه" وردد المؤرخون كلمة قبيصة هذه وزادوا عليها كلمات بمعناه لغيره من عشرائه ورواة أخباره.

ولم يفخر معاوية بصفة كما كان يفخر بحلمه. كان يفاخر خاصته بالدهاء بينه وبينهم، ولكنه لم يفخر قط بالدهاء علانية كما كان يفخر بالحلم والأناة، ولا غرابة فى ذلك من جميع الوجوه. فما من رجل على نصيب من الدهاء يعلن دهاءه ويفخر به وهو يستطيع أن يخفيه ويموهه بالنصيحة والصراحة. ومن صنع ذلك فهو كالصائد الذى يكشف حبالته للقنيصة وهى خليفة ألا تقع فيها إذا انكشفت لعينيها.

ووجه آخر من وجوه الجهر بالحلم وتذكير الناس به عند معاوية أنه كان حريصًا على التحبب إلى الناس لأنه ينتزع سلطانه ويعلم أن الناس لا ينطوون على الحب لمن ينتزع السلطان. إن لم يكن نخوة وأنفة فحسدًا وغيرة، أو إعراضًا عن الغاصب إلى من هو أولى بالسلطان فى رأى أصحاب هذا الرأى وإقبالا على مستحقه عندهم بغير نزاع.

سئل: أى الناس أحب إليك؟ قال: أشدهم تحببًا لى إلى الناس" وغنى عن القول أن الصفح عن المسىء مع القدرة على البطش به من أقرب الوسائل إلى كسب ولائه معاوية ولا شيعته يقصرون فى إذاعة كل خبر فيه مأثرة من مآثر العفو والأناة والبر بكل مسىء من أولئك الذين كانوا يتطاولون عليه بالمساءة فى أول عهده بالملك على الخصوص، ولم يكن عدد هؤلاء المسيئين بالقليل.

كان يقـول: إنى لأرفع نفسى أن يكون ذنب أعظم من عفـوى، وجهل أكبر من حلمى، وعورة لا أواريها بسترى، وإساءة أكثر من إحسانى.

وكان يقول فى مجالسـه: "لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت"، وسأله بعـضهم: كيف ذلك؟ فقـال: "كنت إذا شدوها أرخيتـها وإذا أرخوها شددتها"

وخطب يومًا فقال: "والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما ستشفى به القاتل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى".

وحد الحلم عنده ألا يكون فى العدوان والتطاول مساس بملكه وسلطانه: اغلظ له رجل فأكثر فقـيل له: أتحلم عن هذا؟ فقال: إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم من لم يحولوا بيننا وبين ملكنا".

ووجه آخر غـير هذه الوجوه كان من دواعى اللهج عند معـاوية بفضيلة الحلمل قـبل غيرها مـن الفضائل التـى كان فى وسعـه أن يلهج بها كـالعطاء والتدبيـر وعلو الهمـة وما إلى ذلك من المناقب الـتى يسلمهـا له الأنصار ولا يجحدها كثير من الخصوم.

كان الحلم دعاية سياسية فى خـصومته مع على بن أبى طالب بما اشتهر به من فضال الشجاعة والأمانة والتقوى.

كان الحلم صفة من أعز صفات الرئاسة عند الأمـة العربية، وما نحسبها غالت قط بمحمدة من محامد الرئاسة مغالاتها بالحلم وقرينه "الحكمة".

وربما مدحوا الكرم والشجـاعة فأكثروا فى مدحهمـا إكثارهم فى القول المعاد من قبيل تحصيل الحاصل.

فأمـا الحلم فقد كـانوا يغالون فى الثناء عليه لأنه مـحمدة يطلبـونها فى الرؤساء ولا تجرى مجرى الصفات المـبذولة لسائر المنصفين، ولما اختلف على

معاوية لم يكن أحد ينكر على على شجاعته وتقواه وسابقته إلى الإسلام وقرابته من رسول الله، فإذا شاء معاوية أن يوازيه بصفة من صفات الرئاسة فتلك هى الحلم دون غيره، ودعواه فيها أنه هو صاحب الرأى والحلم والحزم، وإن عليًا صاحب الشجاعة والصلاح، وقد شاعت الموازنة بينهما بهذا المعنى على السنة الدعاة من حزب معاوية وكاد أن يقبلها الناقدون لعلى من حزبه لاشتداده فى الحق الذى لا مثنوية فيه، وأمسك معاوية عن كل لجاجة فى أمر التقوى والصلاح ليقول كلما نافس عليًا وابنه الحسن أن لم أكن خيركم فأنا خيركم لدنياكم.

فالحلم عند معاوية وسيلة من وسائل التحبب إلى الناس، ووسيلة من وسائل الدعاية السياسية يعزز بها حجته ولا يستطيع أن يفخر بصفة غيرها فى مقام المفاضلة بينه وبين الرجل الذى سلم له المنصف والمكابر فضيلة الشجاعة وفضيلة التقوى.

لا جرم كان فى أخبار حلمه إفراط ومجاوزة للمألوف من أمثاله، وكان من أهله من يثور لإفراطه هذا ويحس الهوان فى عزته لما يحتمله صاحب الأمر كله يف دولتهم من الجرأة عليه وعليهم، وكان يزيد - ابنه وولى عهده - أشد هؤلاء الثائرين سخطًا على أبيه، يقول له كلما راجعه: "أخاف أن يعد ذلك منك ضعفًا وجبنًا" .. فيقول له: "أى بنى! إنه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة. فامض لشأنك ودعنى ورأيى".

وقد يعزى غضب يزيد من ذلك الحلم "المفرط" إلى سورة الشباب وحب الاستطالة بالعزة والسؤدد على عادة أترابه وأنداده، ولكن الرأى بين آل بيته "المحنكين" أنه كان يبالغ فى احتمال الأذى والصبر على المساءة، وكان رجل فى حنكة عبد الملك بن مروان يسمى ذلك منه دهانًا كما قال فى بعض خطبه: "ما أنا بالخليفة المستضعف يعنى عثمان، وما أنا بالخليفة المداهن يعنى معاوية، وما أنا بالخليفة المأفون - يعنى يزيد".

ومما يدل على أن الفخر بالحلم دخل فى دعاية الخصومة بين معاوية وعلى خاصة أننا لا نسمع به بعد تأسيس الدولة ولا يفخر به أحد من الأمويين غير الفرع المؤسس لدولتهم فى إبان النزاع الأول على الخلافة.

فالمعلوم أن بنى أمية فرعان: فرع حرب وفرع أبى العاص، وإلى حرب ينتمى أبو سفيان وابنه معاوية، وفالمعلوم أن بنى أمية فرعان: فرع حرب وفرع أبى العاص، وإلى حرب ينتمى أبو سفيان وابنه معاوية، وإلى أبى العاص ينتمى مروان بن الحكم ومن خلفه من ذريته، وفى مقدمتهم ابنه عبد الملك وحفيده سلميان بن عبد الملك.

فالمفاخرة بالحلم إنما كانت تجرى على لسان معاوية ولم تجر بعده على لسام المروانيين حين تأسست الدولة الأموية واستغنى القائمون بها عن مقابلة فضائل على بن أبى طالب بفضائل "سياسية" يرجحون بها أنفسهم فى ميزان الخصومة.

كان معاوية يقول: إذا لم يكن الأموى حليمًا فقد فارق أصله وخالف آباءه.

وكان يقول: "يا بنى أمية! فارقوا قريشًا بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتمًا وأوسعه حلمًا فأرجع وهو لى صديق، أن استنجدته أنجدنى وأثور به فيثور معى، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ولا زاده إلا كرمًا".

وكان المتقربون إليه يذكرونه حلم أبى سفيان إذا أنكروا منه سورة النقمة والغضب. وقيل له بعد مقتل حجر ابن عدى: أين غاب عنكم حلم أبى سفيان؟ فكان يقول: حيث غاب عنى حلماء قومى وحملنى ابن سمية فاحتملت. وقال للسيدة عائشة حين سألته مثل هذا السؤال: لم يكن معى رشيد.

ولا شك أن معاوية قد أقام فخره بالحلم على سمعه قديمة فى بيته بين بيوت بنى أمية، لأن هذا الفخر لا يخلق بين يوم وليلة فى البلاد العربية التى تذكر وراثارها وتعيدها ولا تخاطب بها من يجهلها، ومن المشهور أن حرب بن أبية أصلح بين قريش وهوازن فى حرب الفجار الثانية بعد اقتتال يسير، وأن ابنه سفيان كان يتأنى ولا يتهجم فى خصومات الجاهلية وخصومات الإسلام، ولا يمتنع مع هذا كله أن يكون الفخر بالحلم من دعايته السياسية عند تأسيس الدولة والحاجة إليه فى المفاضلة بين المتنازعين بمناقب الحكم والرئاسة، وقد سكت عنه الأمويون على عهد الفرع الآخر منهم - وهو فرع المروانية - لأنهم لم يحتاجوا إليه فى منازعاتهم، بل كان منهم من يفخر بالفتك ويسرع إلى الغضب ويرهب المخالفين له بسرعة البادرة إليه.

والوقائع - بعد - أصدق من إطراء المادح وغمز القادح، فإنها قد تمتزج بالكذب عمدًا أو على غير عمد، ولكنها فى كثير من الأحوال تنقض كلام قائلها إذا عرضت على التمحيص والتحليل فيسوقها للمدح وهى منطوية على دخيلة تبطل مديحة المقصود، أو يسوقها للقدح وما تنطوى عليه آية من آيات الثناء والمدريح.

والوقائع التى رويت عن حلم معاوية متواترة متكررة، تتفق فيها الكلمات أحيانًا ويختلف فيها القائلون والرواة، أو يتفق فيها هؤلاء جميعًا بغير اختلاف كبير، وهكذا معظم الوقائع التى رويت عن أعلام ذلك الجيل وما بعده، فلابد فيها من حساب للمبالغة وحساب للترجيح والتصحيح بالمقارنة والمضاهاة.

وليست كل هذه الوقائع - مع ذلك - بصالحه للاستدلال بها على حلم معاوية ولو بعد ثبوتها باختلاف أو بغير اختلاف.

فمنها ما تعرض فيه للإساءة مستدعيًا لها مستعدًا لها فى مجال التبسيط والمزاح، والعالم الإسلامى لم يتعود بعد طغيان الملك ولم يتعود ملوكه أن

يسوموا الناس الصبر على ما يكرهون ولا يترقبوا منهم رد الكلام بمثله فى كل مقام.

قدم جارية بن قدامة السعدى عليه لفقال: من أنت؟ قال: جارية بن قدامة. قال: وما عسيت أن تكون؟ هل أنت إلا نحلة؟ قال: لا قل . . فإنما شبهتنى بها حامية اللسعة حلوة البصاق. والله ما معاوية إلا كلبة تعاوى الكلاب وما أمية إلا تصغير أمة!

ورويت هذه القصة على رواية أخرى فقيل أن معاوية بادرة قائلا: "أنت الساعى مع على بن أبى طالب والموقد النار فى شعلل - جميع شعلة - تجوس قرى عربية لتسفك دماءهم؟ فقال جارية: يا معاوية! دع عنك عليًا فما أبغضنا عليًا منذ أحببناه ولا غششناه منذ صحبناه. فقال له معاوية: ويحك يا جارية! ما كان أهونك على أهلك إذ سموك جارية لا أم لك!. قال جارية: أم ما ولدتنى. أن قوائم السيوف التى لقيناك بها بصفين فى أيدينا . . أنك لم تملكنا قسرة ولم تفتتحنا عنوة، ولكن أعطيتنا عهودًا ومواثيق فإن وفيت لنا وفينا وأن ترغب إلى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رحالا مدادًا وأذرعًا شدادًا وأسنة حدادًا. فإن بسطت إلينا فترا من غدر دلفنا إليك بباع من ختر . . قال معاوية: لا أكثر الله فى الناس من أمثالك.

وما نظن معاوية كان مخاطبًا بذلك الخطاب رجلا صف فى عصرنا هذا بأنه من "آكلى النار" ثم لا يترقب منه جوابًا كجوابه، ولعله كان يرضيه أن يسمع منه تسليمًا واستكانة فيطمئن إلى غلبته ورسوخ سلطانه، ولكنه - ولا ريب - لم يغب عن ذهنه أن جاريرة أهل لأن يسمعه ما سمع، وأن يطرفه بتلك الطرافة اللاذعة التى لا يأباها كثير من الناس، وهى طرافة الجواب السريع المتوقع ممن يحسن رد الكلام بمثله فى هذا المقام.

ومن الجواب المستدعى - أو المستثار - قول خريم ابن فاتك وقد دخل على معاوية مشمرًا مئزره فقال له: "لو كانت هاتان الساقان لامرأة؟" وكان

معاوية عظيم الأليتين يهجى فيقال فيه أنه "الجاحظ العين العظيم الحاوية" فما عتم خريم أن أجابه قائلا: "فى مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين"!

وأشبه بهذا المقام حواره مع الزرقاء بنت عدى خطيبة سفين حين ذكرت فى مجلسه بعد سنوات فأرسل إليها يستدعيها. فقالت للرسول: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار لى فإنى لا أذهب، فلما شدوا عليها فى الذهاب دخلت المجلس وفيه عتبة بن أبى سفيان، والوليد، وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص، فهش لها ورحب بها، ثم سألها: أتدرين فيم بعثت إليك؟ . . . .

قالت: وأنى لى بعلم ما لم أعلم. لا يعلم الغيب إلا الله فسكت هنيهة ثم قال: ألست أنت الراكبة الجمل الأحمر فى صفين تحضين الناس بين الصفين على القتال؟ قالت: نعم! . .

قال: فما حملك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين. مات الرأس وبتر الذنب ولن يعود ما ذهب. والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

قال: صدقت. أتحفظين كلامك يومئذٍ؟

قالت: لا والله: أنسيته

قال: لكنى أحفظه، ولله أبوك حين تقولين: "أيها الناس! ارعووا وارجعوا. أنكم أصبحتم فى قنة، غشيتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيا لها فتنة عمياء، صماء، بكماء، لا تسمع لناعقها، ولا تسلس لقائدها، أن المصباح لا يضىء فى الشمس والكواكب لا تنير مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد.

واسترسل فى قول الرواة يعيد عليها كلامها إلى أن قال: والله يا زرقاء. لقد شركت عليًا فى كل دم سفكه.

قالت: أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك، فمثلك بشر بخير وسر جليسه.

قال: أو يسرك ذلك؟

قالت: نعم

قال معاوية: والله لو فاؤكم بعد موته أعجب من حبكم فى حياته . . اذكرى حاجتك

قالت: يا أمير المؤمنين آليت على نفسى لا أسألن أميراً أعنت عليه أبداً. ولكنه على هذا أجزل لها العطاء وأرضاها

وجاءته بكارة الهلالية بالمدينة، ,قد أسنت وغشى بصرها، فسلمت وجلست، فرد عليها السلام وقال: كيف أنت يا خالة؟

فقالت: بخير يا أمير المؤمنين. قال: غيرك الدهر. قالت: كذلك هو ذو غير، ومن عاش كبر، ومن مات قبر.

قال عمرو بن العاص: هى والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيد دونك فاحتضر من دارنا.

سيفًا حسامًا فى التراب دفينا

قد كنت أذخره ليوم كريهة

فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وقال مروان: هى والله يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هند للخلافة مالكًا

هيهات! ذاك وإن أراد بعيد

منتك نفسك فى الخلاء ضلالة

أغراك عمرو - للشقا - وسعيد

وقال سعيد بن العاص: هى والله القائلة:

فالله آخر مدتى فتطاولت

فى كل يوم للزمان خطيبهم

حتى رأيت من الزمان عجائبا

بين الجميع لآل أحمد عاتبًا

فقالت بكارة: نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين . . وأنا والله قائلة ما قالوا، لا أدفع ذلك بتكذيب، وما خفى عليك منى أكثر، فامض لشأنك، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين . . .

فضحك معاوية وقال: ليس يمنعنا ذلك من برك. اذكرى حاجتك، قالت: أما الآن فلا . . .

ويتم الرواة روايتهم فيقولون أنه قضى حوائجها وردها إلى بلدها.

* * *

ولا مخالفة للمعهود فى ازدلاف المردلفين لصاحب الأمر بالوقوع فى خصمه بمحضر ممن يكره ذلك من خاصة أهله. فإن نجا المزدلف بزلفاه فقد رضى وارضى، وإن أصيب كما أصاب فليست كل كلمة يزجيها الملقى فى مجلس الأمير مستحقة من ذلك الأمير أن يشتريها بالثمن الذى يعنته ولا تطيقه دولته فى مطلعها. وقد ازدلف إليه الكثيرون فسلموا، وازدلف إليه غيرهم فأصيبوا بحق لا يمترى فيه عربيان يؤمنان بحق الجواب كما يؤمن به سائر العرب، ولا يمترى فيه مسلمان يؤمنان بالحق حيث كان، وأظهره رد العدوان فى غير داعية للعدوان.

كان عنده زيد بن عمر بن الخطاب، وأمه بنت على أم كلثوم. فنال بسربن أرطاة من الإمام، فما أمهله زيد أن قام إليه فعلاه بالعصا وشج رأسه.

فلم يزد معاوية على أن قال لزيد: عمدت إلى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربته؟ ثم الفت إلى بسر فقال: تشتم عليًا على رءوس الناس وهو جده وابن الفاروق ثم تراه يصبر على ذلك.

وكل أولئك شبيه أن يكون: بسر بن أرطأة قاتل طفلين باليمن لعبيد الله ابن عباس ينال من على فى حضرة معاوية، وزيد بن الفاروق لا يشبه أباه أن صبر على ثلب جده فى مكان حيث كان، ومعاوية يرضى عن سفاهة بسر أن مضت فى سبيلها، ولكنه لا يبطش بزيد أن غضب لجده وأصاب السفيه بجريرة سفاهته، ولا تساوى تلك السفاهة أن يشتريها بالنكال الذى تعود عليه اللائمة فيه ولا تعود عليه منه زيادة فى ملكه، وكل أولئك - كما أسلفنا - شبيه أن يكون، فلا يحسبه أحد فى ذلك العصر من حلم معاوية، بل يحسبه من جبن زيد أن لم يصنع ما صنع بابن أرطأة.

وأن الأشبه بالصدق فى جملة تلك الروايات أن معاوية كان يحب هذا الملق ويحب هذه الاستثارة لأنها تمتعه بذكرى الشدائد التى تخطاها بعد فوات الغاشية، وتريحه إلى لقاء خصومه وهم فى كنفه ينظرون إليه فى مستقر نجاحه وظفره، ولا يضيرونه بقوله يقولونها لا تحول بينه وبين ملكه كما قال.

وغير بعيد أنه كان يترك جلساءه يتحرشون بذوى اللسن من العلويين ليضحك مما ينالهم كما يفعل ذوو السلطان فى كل زمن وكل أمة، فربما كانت سخريتهم بالأنصار أمتع لهم من صد الخصوم، وقد يطلقون بعضهم على بعض ليسخروا منهم جميعًا إن لم يكن لهم خصوم يعرضونهم للسخرية طائعين أو كارهين.

وقد اجتمع من سجال بنى هاشم وخصومهم فى مجلسه ما ينعقد به سجل خاص فى مأثورات الحوار فى كل مقام، ويصحح وقوعه فى رأينا أنه لو حدث لما أمكن حدوثه على غير ذلك النمط الذى تناقله الرواة.

أناس من ذوى السلطان المحدث يعلمون هوان أقدارهم مع بنى هاشم وآل النبى وصفوة قريش، ويلذ لهم أن ينعموا بالسلطان وأن "يجتروا" تلك النعمة حيثما وسعهم اجترارها فى حضرة وليهم وعلى مسمع من السادة الأعلين الذين غلبوا على ذلك السلطان، وأن ولى الأمر نفسه ليحب ذلك ولكنه يعلم أنه مركب غير مأمون، وأن الموتورين إذا سمعوا لما يكرهون فردوه بمثله فما فى وسعه أن يواجه العالم الإسلامى كل يوم بشهيد من آل البيت . . فسبيله أن يصطنع المخالفة لجلسائه وأن يحذرهم مغبة اللهو بهذه الملهاة ولا أمان فيها من لسن القوم وأنفتهم التى لم تخذلهم قط فى مقام المناظرة والتحدى من زمن قديم. فإن أصيب جلساؤه فعليهم وزر عملهم وليس لهم أن يطالبوه بالاقتصاص لهم من أمر قد اختاروه على خلاف رأيه، وإن سلم أولئك الجلساء فقد شفوا صدره من أولئك الموتورين.

وتكاد القصص مع بنى هاشم فى مجلس معاوية تجرى كلها على وتيرة واحدة: رجل من آل البيت يدعى إلى المجلس أو يأتى إليه فى أمر من أموره فيغرى به جليس من الحاشية يتحرش به ويستثيره فيجاب بما هو أهله، ويتغاضب معاوية على الجليس فيلومه إذا بلغ الجدال والمحال فصل المقال، وما نرى أن الملهاة كلها كانت مدبرة لكى تنتهى إلى خاتمة أخطر من هذه الخاتمة. وماذا عليهم إذا استطال الموتورون بالمقال وهم يستطيلون بالسلطان؟

***

إلا أن حديثًا واحدًا من أحاديث بنى هاشم يخالف هذا النمط ولا يستقيم مع سائر هذه الأحاديث. فلم يكن البادئون به من جلساء معاوية ولا من آل البيت، ولكن البادئ به معاوية نفسه على نحو لا يشبه طريقته المأثورة من التقية والمداراة، وليس فيه نفع له فى شأن من شئون الملك أو خاصة من خواص أمره تستوجب ذلك الحديث.

قيل أنه تحدث إلى ابن عباس فقال له: إن فى نفسى منكم لحزازات يا

بنى هاشم. وإنى لخليق أن أدرك فيكم الثأر وأنفى العار. فإن دماءنا قبلكم وظلامتنا فيكم، فقال له ابن عباس: والله إن رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أسدًا مخدرة وأفاعى مطرقة، لا يفثأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح، يضعون أسيافهم على عواتقهم ويضربون قدمًا قدمًا من ناوأهم . . .

إلى أن قال فى رواية الرواة: "فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك، وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك، ولولا طعام من أهل الشام وقوك بأنفسهم وبذلوا دونك مهجهم . . ورفعوا المصاحف مستجيرين بها وعائذين بعصمتها لكنت شلوا مطروحًا بالعراء . . وما أقول هذا لأصرفك عن عزيمتك ولا لا زيلك عن معقود نيتك، ولكنها الرحم تعطف عليك والأواصر توجب صرف النصيحة إليك". فقال معاوية: لله درك يا ابن عباس. ما تكشفت الأيام منك إلا عن سيف صقيل ورأى أصيل. والله لو لم يلد بنو هاشم غيرك لما نقص عددهم ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثرهم.

وإن دواعى الشك فى مثل هذا الحديث لكثير، لولا أن التلفيق فيه أعسر من أن يتاح لكل راوية يضع الكلام على كل لسان، ولا يبالى أين موضعه من القائل والمجيب.

فإن كان معاوية قائلا مثل ذلك المقال لأحد من بنى هاشم فإنما يقوله لعبد الله بن عباس دون غيره، فإنه حديث داهية يسبر به غور داهية يقارنه من بيت خصومه، وأنه مع ذلك قرين تجمعه آصرة القرابة بآل على ولا تجمعه بهم آصرة المودة والموافقة جد الموافقة على الوجهة. وقد تخلى ابن عباس عن ولاية ابن أبى طالب ووقعت بينهما الجفوة التى لم تصلحها حوادث الأيام بعد ذلك. ولا منافسة بين على وأبنائه فى حياته ولا بعد مماته، وإنما المنافسة بينه وبين أعمامه وبنى عمومته: إنما المنافسة بين اثنين أحدهما ابن عم للنبى هو أبو طالب والآخر ابن عم للنبى هو العباس. فهاهنا على كل حال طلع

يستطلع بتلف الكلمة المفاجئة، ولا معنى لها إلا أن تساق مساق الاستطلاع ولا تساق على الجد فى التحذير والتنبيه.

وأى فائدة كبرى كان يفيدها معاوية لو سمع من ابن عباس كلمة تفتح الباب للتفرقة بينه وبين سائر الهاشميين العلويين؟ أى فائدة كان يفيدها لو رأى من دهاء ابن عباس أنه يمهد لنفسه عند السلطان الجديد ولا يزايد على التشفع لغيره من سائر أهل البيت؟

إن غرابة هذه القصة هى التى ترجحها وتضعف الشك فيها، فإنها إن وقعت لن تقع إلا على غرابتها.

إنها غريبة من معاوية إلا أن تكون مقصودة لغير ظاهرها مع رجل له ظاهر وباطن يستطلع بهذه المفاجئة ولا يستطلع بغيرها، وقد يبدو منه ما تنكشف به جلية الموقف بينه وبين سائر بنى هاشم، وكل بنى هاشم غير عبد الله بن عباس فظاهرهم وباطنهم لا يختلفان إذا سمعوا مثل ذلك النذير.

هذا أو تكون نفثة من نفثات الكظم تنطلق منه حيث يقدر الأمان مع رجل يخفى باللسان ما لا يضمره الجنان.

***

وأمثال هذه الردود الخشنة جميعًا لم تكن فى ذلك العصر مما يستكثر فى مناسباتها، وقد سمعها معاوية - أو سمعها جلساؤه معه - متوقعة مستثارة، ولم يتعود الناس يومئذ أبهة الملك وطاعة العبيد للسادة، ولم يتعود الأمير كذلك أن يسوم الناس سكوتًا فى موضع القول، وأعضاء فى موضع الأنفة، وإنما كان الأمير خليفة يتشبه بالخلفاء الراشدين فى حق الطاعة، ولم يعهد أحد من هؤلاء الخلفاء أن يخاطب إنسانًا بما يسوءه ثم يستنكر عليه أن يجيبه بمثل خطابه، فهذه "هرقلية" لم يتعودها الرعاة ولا الرعايا ولم يكن فى طاقة معاوية أن يروض رعاياه عليها دفعة واحدة. فإذا تمهل فيها آونة بعد آونة فإنما يكون التمهل بمثل ذلك الصبر على كره أو على اختيار.

ومن الوقائع التى رويت عنه وقائع يلتبس فيها الحلم ببطء الغضب وطول الروية والأناة، ومنها ما يتلقى فيه الإساءة أو الوعيد على البعد ويتسع له الوقت قبل الإجابة عنها بما يروى فيه النظر ويرتضيه.

عدا عبيد لمعاوية على أرض ابن الزبير فكتب إليه ابن الزبير: "أما بعد يا معاوية. إن لم تمنع عبيدك من دخول أرضى وإلا كان لى ولك شأن".

وقيل إن معاوية أطلع ابنه يزيد على كتاب ابن الزبير وسأله: ما ترى؟ فقال له يزيد: لتنفذن إليه جيشًا أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه. فقال: بل عندى يا بنى خير من ذلك، وكتب إلى ابن الزبير:

"وقفت على كتابك يا ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وساءنى والله ما ساءك، والدنيا هينة عندى فى جنب رضاك، وقد كتبت على نفسى رقيمًا بالأرض والعبيد وأشهدت على فيه، ولتضف الأرض إلى أرضك والعبيد إلى عبيدم والسلام".

وأطلع معاوية ابنه على الكتاب الثانى كما أطلعه على الكتاب الأول لأسفر وجهه، وأبوه يقول: إذا رميت بهذا الداء فداؤه بهذا الدواء.

ومن الإساءات ما لا خطر له لأنه من غير ذى شأن كشأن ابن الزبير، ولكنه يغضب العربى لأنه يمس الحرمات كتشبيب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية إذ قال:

رمل هل تذكرين يوم غزال

إذ فطعنا مسيسرنا بالتمنى

إذ تقولين: عمرك الله هل شـ

ـىء وإن جل، سوف يسليك عنى؟

فغضب يزيد وأغرى كعب بن جعيل بهجاء الأنصار فأبى ودله على الأخطل فنظم قصيدته التى يقول منها:

ذهبت قريش بالمكارم كلها

واللؤلؤ تحت عمائم الأنصار

وأوشكت أن تكون فتنة، إذ دخل النعمان بن بشير على معاوية محنقًا وحسر عن رأسه وهو يقول له: هل ترى يا معاوية لؤمًا؟ فقال: بل كرمًا وخيرًا، فما بالك؟ فأعاد عليه أبيات الأخطل وتوعده بأبيات يقول منها:

معاوى ألا تعطنا الحق تعترف

لحى الأزد مشدودًا عليها العمائم

أيشتمنا عبد الأراقم ضلة

وماذا الذى يجدى عليك الأراقم

فما لى ثأر دون قطع لسانه

فدونك من يرضيه عنك الدراهم

وتتم القصة بما قيل عن طلب معاوية للأخطل وتهديده إياه بقطع لسانه لولا شفاعة يزيد الذى أغراه بالهجاء.

وفى رواية من هذه الروايات الكثيرة أن التشبيب إنما كان بأخت معاوية وأن يزيد دخل على أبيه فذكر له قول عبد الرحمن بن حسان:

طال ليلى وبت كالمجنون ومللت الثواء فى جيرون

فقال له: وما علينا يا بنى من طول ليله وحزنه أبعد الله . . .

قال يزيد: وأنه ليقول:

فلذاك اغتربت بالشام حتى

ظن أهلى مرجمات الظنون

فقال أبوه: وما علينا من ظن أهله؟

قال يزيد: وأنه ليقول:

هى زهـراء مـــــثل لؤلـؤ الغـــــو

اص مـــيـــزت من جـــوهر مـكنون

قال معاوية: صدقت يا بنى. هى كذاك

قال يزيد: وأنه ليقول:

ثم خـاصـرتهـا إلى القـبلة الخـضـر

اء تمشـى فى مـــرمـــر مـسـنون

عن يســـارى إذا دخلت إليـــهـــا

وإذا مـــا تركـــتـــهـا عـن يمـــينى

فـضحك مـعاوية وقـال: ولا كل ذاك . . . ثم حذر ابنه قـائلا: ليس يجب القتل فى هذا ولكننا نكفه بالصلة . . .

وزعموا فى بعض روايات القـصتين أن معاويـة أرسل فى طلب الشاعر وأبلغه أن هذا أخت رملة تعتب عليه لأنه لا يسـويها بأختها، وأراد بذلك أن يشـبب الشاعـر بهند فيـعلم الناس أنه كاذب فى كل مـا نظم، وأنها أقـاويل الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون.

والثـابت من كل هذا الحديث بيـت الأخطل فى هجاء الأنصـار، وربما ثبت مثله هجاء الأراقم قوم الأخطل من تغلب. فـإذا كان قد دخل فى الأمر تشـبيب بأخت يزيد أو يـعمـته فـربما هون خطره غـضب الأنصار وغـضب المسلمين جميعًا أن يهجو أنصـار النبى شاعر من غير المسلمين، ولو أن المسألة لغوه كما قال معاوية، فمـا كان سفك الدم لمثل هذا القول بالأمر المستباح فى صدر الإسـلام، وقد مضى بعد هذا الجـيل أجيال على سنة الملك العـضوض

ولم يخطر للمهدى فى دولة بنى العباس أن يتقل بشاراً وهو القائل فى أبى جعفر المنصور:

أبا جعفر ما طول عيش بدائم

ولا سالم عما قليل بسالم

كأنك لم تسمع بقتل متوج

عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم

بل هو الذى أفحش فى هجاء المهدى وهجاء نساء بيته وذهب يخبط بالمهايجة والتحريض بين بنى أمية وبنى العباس، وما استباح المهدى عقابه إلا بتهمة الزندقة والإلحاد، وما أمر إلا بأن يضرب ضرب التلف ليقال فى ذلك أنه إنما أريد به الضرب فمات.

وهذا بشار وذاك عبد الرحمن بن حسان

ففى وزن الرجال وتمحيص الأخلاق وفهم الطبيعة الإنسانية - أى فهم الإنسان - لا جدوى من التعويل على ألفاظ الصفات ولابد من الرجوع إلى الوقائع وما لها من الأثر الطبيعى فى الضمير وما يتم عليه هذا الأثر من خليقة نفسية أو ملكة عقلية.

وهذه الوقائع التى رويت عن معاوية تبدى لنا منه صفة لاشك فيها وهى طول الأناة وبطء الغضب، وليست هى بالصفة التى ترتدف الحلم كما يفهم لأول مهلة. إذ كثيراً ما يكون بطء الغضب شيًا "سلبيًا" يدل على امتناع الغضب طبعًا أو قلة الاستعداد له فى الخلقة، ولا تكون الفضيلة أبدًا "شيئًا سلبيًا" قوامه غياب أثر من الآثار النفسية وكفى..

فليس معنى الشجاعة - مثلا - تجرد الطبع من الشعور بالخوف، لأن الإنسان الذى يقدم على الخطر وهو لا يشعر به يندفع اندفاع الجماد ولا فضل له فى اندفاع لا يكلفه الغلبة على خوف يساوره فى ضميره.

وليس معنى الكـرم تجرد الطبع من الشعـور بقيمـة المال أو قيمـة المنحة المبذولة، لأن من يتصرف فى شىء لا قيمـة له عنده كمن يتصرف فى التراب والهواء وما إليهما من مبذول العطاء.

وليس معنى العفة تجرد الطبع من الشعور بالشهوات، لأن من لا يشتهى لا يطلب ولا يقاوم الإغراء ولا تحسب له عفة.

وليس معنى الحـلم تجرد الطبع من الشعـور بالغضب، لأن التـجرد من هذا الشعـور قد يأتى من بلاده فـى الطبع وركود فى حـركة النفس ومقـابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال.

وإنما الحلم أن يغضب الإنسـان وأن يحكم غضبه بإرادته إيثـارًا لا يفوق الغضب فى قيم الأخلاق.

فـمن الحلم أن يأنف الإنسـان من الاسـتـسـلام للغـضب، لأنه يرتفع بكرامته أن تصيبها إساءة المسىء.

ومن الحلم أن يصـفح الإنسان عن الإسـاءة إيثارًا للخـير وعطفًـا على المسىء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يصنع فى حق أبيه.

ومن الحلم أن يقمع الإنسـان غضبه لأنه يملك زمام نـفسه ويوازن بين العواقب فيخـتار أسلمها للناس عامة، وإن لم يكن أسلـمها له فى ذات شأنه وشئون ذويه.

ولابد من التفرقة هنا بين الحلم إيثـارًا للنفع الإنسانى أو النفع القومى، وبين الحلم إثارًا للسلامة وعملا بطبيعة "الأنانية" وحب الذات.

فليس من الحلم أن يضرب الضعيف فلا يرد الضربة بمثلها لأنه يعلم أنه سيتلقى أضـعافًا ممن هو أقدر منه وأقـوى علىٰ إيذائه، وإنما يقال عن هذا أنه جبن أو رضى من المعتدى عليه بأهون الشرين.

ولا يكون الحلم أبدًا عجزًا عن مجازاة الغضب أو امتناعًا للشعور به، لأن الفضيلة لا تقوم على عجز أو امتناع، ولكنها تقوم على إرادة تملك الاختيار بين الخطتين.

وجملة القول فى هذه الصفة أن الحليم هو الذى يملك الغضب ولا يملكه الغضب، وكلما اشتد الغضب واشتدت القدرة عليه كان ذلك أبين عن الحلم وأدل عليه. وكلما ارتفع السبب الذى من أجله يتغلب الحليم على غضبه كان ذلك أرفع لقدره وأرجح لوزنه فى ميزان الفضيلة، فمن يحسم الغضب حرصًا على منافع الناس أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب حرصًا على منافعه العاجلة أو الآجلة، ومن يحسم الغضب لأنه يشمل الناس بحبه وعطفه أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب لأنه يحب نفسه ويقدم حبها على كل حب لغيره.

ومن كلام حكماء العرب وبلغائهم نستشف فطنتهم لحقيقة هذه الفضيلة. فهى فضيلة المريد المختار المالك لزمام الأمرين كما قال ابن خليفة مولى قيس بن ثعلبة يمدح قومًا من آل شيبان:

عليهم وقار الحلم حتى كأنما
وليدهم من أجل هيبته كهل
أن استجهلوا لم يعزب الحلم عنهم
وأن آثروا أن يجهلوا عظم الجهل

أو كما قال النابغة الجعدى:

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له
بوادر تحمى صفوة أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له
حليم متى ما أورد الأمر أصدرا

ومن كلام الأحنف بن قيس - أحد مشاهيرهم بالحلم - "رب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه" . . . وكان من حلمه أنه يصفح عن المسىء وإن ظن به الذل ويقول: "ما أحب أن لى بنصيبى من الذل حمر النعم" . . فلما قيل له: كيف وأنت أعز العرب؟ قال: "أن الناس يرون الحلم ذلا" . . وهو القائل: "لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان" . . وسألوه ما الحلم؟ فقال: "قول إن لم يكن فعل، وصمت أن ضر قول".

وروى العقد الفريد أن هشامًا بن عبد الملك سأل خالد ابن صفوان: بم بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟ فقال: إن شئت أخبرتك بخلة، وإن شئت بخلتين، وإن شئت بثلاث قال: فما الخلة؟

قال: كان أقوى الناس على نفسه

ثم قال عن الخلتين أنه كان موقى الشر ملقى الخير، وعن الثالث أنه كان لا يجهل ولا يبغى ولايبخل

وإسناد الأحنف فى الحلم قيس بن عاصم المنقرى كان مشهوراً بالإقدام كشهرته بالحلم والإغضاء عن الذنب كبيره وصغيره، وبلغ من حلمه أنه صفح عن ابن أخيه الذى قتل ابنه، وقد أوثقه من ود أن يبطش به لساعته فما زاد على أن قال له مؤنبًا: "بئس ما فعلت. نقصت عددك وخنت عشيرتك وأسقطت مروءتك وأشمت عدوك وأسأت قومك . . وأنت الذى كنا نرجو لعظائم الأمور" ثم واسى زوجته أم القتيل وأجزل لها الدية من ماله، وحسم بذلك شراً مستطيراً فى القبيلة لا يجعله عنده أخطر من شر الثكل إلا الحلم الراجح والقلب الكبير والنظر البعيد.

***

ويمر بنا مثل من الأمثلة الصالحة لتقويم الروايات ورواتها بصدد الأخبار التى نقلها صاحب العقد الفريد عن الحلم والحلماء، ومنهم الأحنف ومعاوية.

فـابن عبـد ربه ينقل لنا أن الأحنف سئل: من أحلم أنت أم معـاوية؟ فقـال: تالله ما رأيت أجـهل منكم. أن معـاوية يقدر فيـحلم وأنا أحلم ولا أقدر، فكيف أقاس عليه أو أدانيه؟

فإذا سمع السامع المتعجل هذا فحـرى أن يتقرر لديه رجحان معاوية فى الحلم بشهـادة الرجل الذى يضرب به المثل فى حلـمه، وأى شهـادة عسى أن تكون أصدق من هذه الشهادة!

وما هى إلا معاودة لحظة فى السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم أن السؤال كان لا يحتمل جـوابًا غير ذلك الجواب، أو أنه سؤال ما كان ينبغى أن يتوجه للأحنف ويترقب سائله أن يقول له: بل أنا أحلم من معاوية! وقد كـان الأحنف خاصـة يرى من عرف الحلم أن يستـصغـره وأن يقول عن نفسـه كما نقل صـاحب العقد قـبل ذلك بسطر واحد: لست حليـمًا ولكننى أتحالم.

ولو أن الأحنف قال برأيه ذاك اعتقادًا ولم يقل به تواضعًا أو تحالمًا لكان على خطأ لا يخفى عند النظرة اليسـيرة فى أسباب تفضيله مـعاوية على نفسه . . فما هى القدرة التى كانت مطلوبة من الأحنف فى مقـامه؟ لقد كان يكفيه أن يقدر على كلمة لا يعـجز عنها أحد، وكان يكفيـه أن يمسك تلك الكلمة فيكون أقـوى الناس على نفسـه كمـا وصفه خـالد بن صفـوان، وأما الملوك فالمطلوب منهم أعمال لا يقدرون عليها فى كل وقت ولا مع كل أحد. إلا أن يكون المقصـود بالقدرة طياشـة جامحـة تخبط ما تشـاء بغير مـبالاة، وليس قصارى الحليم أنه غير الطياش وغير الخابط الذى لا ينظر إلى عقباه.

ويوزن الراوى فى روايته هذه فلا نجهل موقع الهوى فيما يشاع عن حلم معاوية وييسر انتقال الإشـاعة من قائل إلى قائل ومن ناقل إلى ناقل. فما فى هوى الأندلسيين لبنى أمية من حنفاء ودولتهم الأولى أموية فى أساسها، وابن عبد ربه نفسـه حفيد لسالم القرطبى مولى هشـام بن عبد الرحمن الداخل بن

معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مـروان، وأقل ما يقال فى نقل ابن عبد ربه أكلمة الأحنف أنها تزكية لرأس الدولة الأموية رحب بها ووافقت هواه.

***

ونعود إلى تاريخ مـعاوية فيـما قاله وفـيما سكت عن قـوله منذ نشأته الأولى فلا نجد فيه أثراً واحداً لطبيعة الغضب التى تمتحن بها فضيلة الحلم كما امتـحنت فى نفس الرجل الحـزين فى صدمة الثـكل وهو المقتحـم المغوار فى الجاهلية والإسلام.

ونخال أن التاريخ لم يحـفظ لنا غير حادث واحد يفـتح لنا مغاليق هذه الخليقة فى طوية الرجل، فإنها فى الحق لغز لا يكفى لحله مجرد القول بالحلم أو بالغـضب المكبـوت أو بطول الأناة، وإنما يحلـه علم النفس الحـديث على النحو الوحيد الذى يعطينا منه معنى مفهومًا على وجه من الوجوه.

ذلك الحادث هو مقتل حجر بن عدى وأصحابه لغير ضرورة عاجلة ولا مصلحة آجلة، فما كان له من خطب غير أنه واحد من أولئك الذين قال فيهم مـعاوية أنه لا يـحول بينهم وبـين ألسنتهم لأنـهم لا يحولون بيـن بنى أميـة وملكهم، فإن كان لابد من إسكاته فـقد يسكنه أن يحملوه إلى مكان لا يلقى فيه من يستمع إليه.

قال ابن الأثيـر بعد أقـاويل شتى: "أن زياداً خطب يوم جـمعـة فأطال الخطبة وأخر الصلاة فقال له حجـر بن عدى: الصلاة! فمضى فى خطبته . . فقال: الصلاة! فـمضى فى خطبته. فلما خشى حجـر بن عدى فوت الصلاة ضرب بيده إلى كف من حصى وقام إلى الصـلاة وقام الناس معه، فلما راى زياد ذلك نزل فصلى بالناس وكتب إلى معاوية وكثر عليه، فكتب إليه معاوية ليشده بالحديد ويرسله إليه. فلما أراد أخذه قام قومه ليمنعوه فقال حجر: لا، ولكن سمعًا وطاعة. فشد فى الحديد وحمل إلى معاوية فلما دخل عليه قال:

السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: أأمير المؤمنين أنا؟ والله لا أقيلك ولا أستقيلك. أخرجوه فاضربوا عنقه، فقال حجر للذين يلون أمره: دعونى حتى أصلى ركعتين، فقالوا: صل. فصلى ركعتين خفف فيهما ثم قال: لولا أن تظنوا بى غير الذى أردت لأطلتهما، وقال لمن حضر من قومه: والله لا تطلقوا عنى حديداً ولا تنسلوا عنى دمًا. فإنى لاق معاوية غداً على الجادة. وضربت عنقه".

ودهش الناس لهذه المقتلة الجزاف واهتز لها العالم الإسلامى هزة عنيفة أورثته مبغضة لدولة بنى أمية من تلك المبغضات التى كمنت وطالت حتى نسيت أسبابها وبقيت نوازعها، وظل شيخ الشهيد الوقور يساور معاوية إلى يوم وفاته، فجاءه فى رواية ابن سيرين: "إن معاوية لما حضرته الوفاة جعل يقول: يومى منك يا حجر طويل".

ولا يحاط بعوارض الفزع التى ألمت بالعالم الإسلامى من جراء هذه المقتلة الباغية ولكنها قد تتمثل فى عارض واحد يدل على كثير. فإن الخبر الذى ذاع عن تسيير حجر وأصحابه إلى دمشق لم يكد يصل إلى السيدة عائشة بالحجاز حتى أوفدت عبد الرحمن بن الحارث يتشفع فيه وفى صحبه، وهى لا تنسى أن أعوان معاوية قتلوا أخاها محمداً شر قتلة ولا يخفى عليها غلو حجر وأصحابه فى حب على وشيعته وبينها وبين العلويين من الجفوة ما هو معلوم.

وقد فات معاوية كل عذر فى هذه المقتلة حتى ما كان من عذر واه كعذر ابنه يزيد فى مقتلة الحسين. فإن يزيد قد أحال الذنب على عبيد الله بن زياد، وانعكست الآية فى أمر معاوية وحجر فكان زياد هو الذى نفض يديه من وزر هؤلاء الشهداء وألقاه على مولاه، وضاق مولاه بانتحال المعذرة بعد حين فكان جوابه لسائليه مما يخجل الطفل بين الصغار فضلا عن العاهل بين الساسة وفى ذمة التاريخ .. قال له عبد الرحمن بن الحارث: أين غاب عنك

حلم أبى سفيان؟ فقال: حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى . . . وحملنى ابن سمية فاحتملت . . وسألته السيدة عائشة مثل هذا السؤال فقال: لم يكن حولى رشيد، وكانت السيدة عائشة تقول: لولا أنا لم نغير شيئًا إلا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه لغيرنا مقتل حجر . . أما والله إن كان لمسلمًا حجابًا معتمرًا، وكان الحسن البصرى الزاهد المعروف يقول: أربع خصال كن فى معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة، ثم أحصاها وذكر منها مقتل حجر: "فيا ويلا له من حجر. يا ويلا له من حجر. يا ويلا له من أصحاب حجر".

وفى رثاء حجر تقول هند بنت زيد الأنصارية:

تجبرت الجبابر بعد حجر

وطاب لها الخورنق والسدير

فإن يهلك فكل زعيم قوم

من الدنيا إلى هلك يصير

ومعذرة معاوية هذه خليقة أن تدعونا إلى تصديق الوصية التى أوصاه بها أبوه حين سافر إلى الشام. فقد يستكثر على معاوية أن يؤمر بمراجعة أبيه فى كل كبيرة وصغيرة قبل أن يحدث بينه وبين أحد أمرًا فى خصومة أو قطيعة، وقد يستكثر عليه أن يصفعه صافع فلا يقتض لنفسه حتى يسأل أباه ويترقب الجواب منه، فإذا كان الرجل يرتضى من معاذيره أن يقوده ابن سمية فينقاد لأنه لم يجد حوله رجلا رشيدًا فليس بالكثير أن يؤمر بمراجعة أبيه فى شتم شاتم وضرب ضارب، وهو فى مقتبل الشباب قبل الولاية وقبل الخلافة.

ولسنا نفهم من ذلك أن معاوية كان فى حكم القاصر فى شبابه وكهولته، ولكننا نفهم أن أباه كان يعرفه وكان يعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها.

حدث صاحب العقد الفريد فى الجزء الأول عن أبى حاتم عن العتبى قال: "قدم معاوية من الشام وعمرو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب، فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما إلى أن اعترض عمر فى حديث معاوية فقال له معاوية: أعملى تعيب وإلى تقصد؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملى وأخبره عن عملك. قال عمرو: فعلمت أنه بعملى أبصر منى بعمله، وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره. فأردت أن أفعل شيئًا أشغل به عمر عن ذلك، فرفعت يدى فلطمت معاوية. قال عمر: تالله ما رأيت رجلا أسفه منك. قم يا معاوية فاقتص منه. قال معاوية: إن أبى أمرنى ألا أقضى أمرًا دونه. فأرسل عمر إلى أبى سفيان فلما أتاه ألقى له وسادة وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية فقال: لهذا بعصت إلى؟ أخوه وابن عمه، وقد أتى غير كبير، وقد وهبت ذلك له".

وصاحب العقد - على هواه الأموى - يسوق هذه القصة فى سياق الثناء، ولسنا نفهم من ذلك أن معاوية كان فى حكم القاصر فى شبابه وكهولته، ولكننا نفهم أن أباه كان يعرفه وكان يعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها وأنه إذا غضب يتغاضب بالرأى والاختيار فيخطئه التقدير.

وموقفه مع حجر وأصحابه ظاهرة نفسية معهودة فى الطبائع التى تصدم فتقبل الصدمة وتحذر من الاندفاع، ولكنها إذا تركت بلا صدمة تردها لم تعرف حدود الارتداد ولا تأتى أن تستسلم للاندفاع.

تلك الظاهرة من موروثات طبيعةالمطاردة فى الإنسان وفى الحيوان أو السبع من قبله.. فقد علم المراقبون لطبائع الحيوان أن المطاردة عنده تقوم على حركات متتابعة ولا تقوم على حركة واحدة. فإذا لمح الحيوان من خصمه أنه يجفل منه أخذ فى الهجوم، وإذا عدا خصمه أمامه أخذ فى العدو وراءه، وإذا

أدركه ولم يجد منه مقامة تمادى فى صرعه وافتراسه، ولعله لو وقف أمامه رابط الجأش من مبدأ لأمر لم تتنبهفيه حركة الهجوم فحرته المادة فحركة اللحاق والافتراس، وعرف صادة الأسود - وهى الخطر السباع - أنها تتردد إذا واجهها الإنسان ثابت النظر راسخ القدمين.

وقد دخل حجر على معاوية ومعاوية ينتظر منه صدمة يتبعها حذر فانتباه لواجب الحلم والأناة، فلما دخل حجر محييًا له بالإمارة وزال الحاجز الأول زالت معه الحواجز الأخريات، ولم يعلم الرجل أين يكون الوقوف.

ونظن أن هذه الخليقة قد أوشكت أن تبرز فى طوية معاوية من وعيه الباطن إلى وعيه الظاهر، ومن ذاك قوله: إذا شد الناس شعرة أرخيتها وإذا أرخوها شددتها، أو قوله: إذا طرتم وقعنا وإذا وقعتم طرنا، أو قوله لزياد: كن أنت للشدة ولأكن أنا للين . . فهو يتلقى وحى طبيعته من الصدمة التى تلقاه، فإن لم تكن صدمة فهناك الحيرة التى لا تخرجه منها طبيعة تلوذ بالغضب على قدره فلا تقف حيث ينبغى لها الوقوف، ولو كان للغضب عنده دائرة المطبوع لا تنظر لها حلمه حيث يغضبون وانتظروا غضبه حيث يحلمون. وكثير من أمثال هذه الخليقة نلقاه بيننا كل يوم فيقول القائل عن الرجل من أصحابنا: لو أنك شددت عليه لأرضاك وحمدت أثر الشدة عليه!

ويستدعينا ختام هذا الفصل تفرقة أخرى كالتفرقة بين الحلم وامتناع الغضب، وهى التفرقة بين الطموح إلى الزعامة والصولة والطموح إلى الشرف الاجتماعى الوجاهة السياسية.

فالطموح إلى الزعامة والصولة مزاج حيوى يدخل فى تركيب البنية ويدفع صاحبه كما تدفعه وظائف الجسد فلا يستريح أو يقود الأمم قيادة الزعامة ويصول بعظمة الرئاسة والعلو على الأقران والأتباع.

والطموح إلى الشرف الاجتماعى تقليد من تقاليد المجتمع يحرص عليه

من توارثوه حرصهم على الحطام وبيطه العيش ووجاهة الأسرة والبيت، ويغلب عليه أن يكون تراثًا متخلفًا من الآباء للأبناء يغض الأبناء أن يتخلوا عنه ويروا غيرهم فى مكانه.

ولا يلزم من الطموح إلى الشرف الاجتماعى أن يكون صاحبه مطبوعًا على الصولة والعلو وطلب الطاعة والخضوع، وقد يلجأ صاحبه إلى المداورة واللين والخضوع لهذا والمصانعة لذاك ليحتفظ بالتراث الذى صار إليه أو يرجو أن يصير إليه.

ونحن فى قرانا نشهد المثال على كل من النموذجين فى كل قرية وكل إقليم. فبينا يستميت "بيت العمدة" فى استبقاء وجاهته ويلين من أجل ذلك للحاكم وصاحب الأمر وأعوانه على المكانة الموروثة ينهض رجل آخر مطبوع على الأنفة والصولة فيستطيل على تلك المكانة وينازع فى تلك الوجاهة ولا يستريح إلا إذا أمر وتحدى وملك زمام العزة بالمقال والفعال.

وبنو أمية عامة، ومعاوية خاصة، من أصحاب "المظهر الاجتماعى" وليس فيهم غير اقليل النادر من أصحاب الطموح إلى الزعامة والصولة كما تكون فى بنية المزاج وتركيب الخلق والجسد، وقد صبر معاوية على ألوان من الخضوع فى طلب وجاهته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة الناس، لأنه يطلب تلك الوجاهة بتقليد وراثى ولا يطلبها بنزعة غلابة فى الطبيعة والتكوين.

واحتاج أن يقول مرة كما جاء فى الطبرى مسنداً إلى سعيد بن سويد: "ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا. قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم".

وهى قوله لم يقلها أحد غيره من المطبوعين على الصولة والزعامة لأنهم لا يحتاجون إليها، ولكنه قالها لأنها جثمت على صدره لطول ما صبر على

مجابهة هذا ومصانعة ذاك، وتذكير المذكورين إياه لم يملكهم عنوة ولا فتحًا، بل ملكهم بالمشرطة والاتفاق. فنفس عن صدره بتلك الكلمة ولم يحدث من غيره أنه شعر بالحاجة إلى تنفيس كذلك التنفيس.

لقد كان فى الرجل مشابهة للجمل الصبور ولم تكن فيه مشابهة للأسد الهصور.

كان يصفح لأنه لا يغضب، وكان يحمل على كاهله وفى طوايا نفسه ما ينوء غيره بحمله، وكان يصبر الصبر الطويل على بلوغ الجاه حيث لا يطاق هذا الصبر مع نزوع الطبيعة السوارة إلى الزعامة والصولة.

كان حلمه امتناع غضب، وكذلك همته تقليد ورائة وحيلة وجاهة.

وقد قال مرة أو مرات: "إن السلطان يغضب غضب الصبى ويأخذ أخذ الأسد".

ولكنه حين غضب غضبته الآبدة فى مقتل حجر وصحبه لم يغضب غضب الصبى وحسب، بل التمس العذر، مجفلا من غضبته، فلم يفتح عليه بغير عذر الصبى بين يدى الفقيه!

***